ظاهرة الانتظار في ش

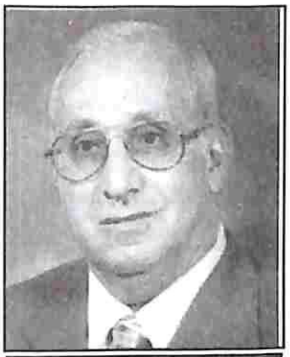

بقلم: د. أحمد السعدني
مصر

-١-

١-١ ظاهرة الانتظار واضحة تمامًا في شعر «عبده بدوي»، وليس الأمر قاصرًا على الشعر الغنائي وحده، بل في محاولته مع القصيد السيمفوني «محمد» صلى الله عليه وسلم، والأوبرا الإفريقية «الأرض العالية» ومسرحياته الشعرية الثلاث: «العودة في أطراف الليل» و«المنتظر» و«عابد المسكين» التي أسماها «ثم يخضر الشجر» مستوحاة من نصوص ثلاثة من كتاب «الفرج بعد الشدة» للقاضي «أبو علي التنوخي» (القرن الرابع الهجري- العاشر الميلادي) مع ما فيها من إسقاط لما أشار إليه التنوخي من هموم مجتمع بغداد في عصره، على ما في مجتمعنا العربي في مصر في نهاية القرن العشرين.

تتبدى هذه الظاهرة واضحة في مسرحية «المنتظر» على لسان الخياط، إذ يجلس على سجادة في بيت فقير تعبق فيه الطيبة في انسجام مع الأشياء البسيطة المتعاطفة مع صاحبها.

« **الخياط**

لو مات الظلم بهذي الأرض

لو أن مدينتنا فتحت عينا للنور، وللمكسور الروح.. القلب

لو حولت الدنيا للمظلومين من الظلمة

لو نضرب في صدر الباغين بسيف الحق

لو نضمن للعمال بأن يجدوا لُقمًا خشنة

لو نعطي للزراع الحق بأن يقفوا عند الميزان[١]».

وتختلف مواقف الشعراء ورؤاهم وتنامي ظاهرة الانتظار عندهم، وتشكلها في إبداعاتهم، ذلك لأن ظاهرة الانتظار ملمح من ملامح تكوين العقل العربي، وتتفاوت كثافة هذه الظاهرة من شعب عربي إلى آخر، تبعًا لأثر المكان بمعطياته على تكوين العقل والوجدان، بيد أن هناك تجذرًا للانتظار في الضمير الجمعي العربي، وكذلك الشأن في الوعي العربي الجماعي على الرغم من هذه العقلية القبلية التي رانت على الإدراك العربي بما في هذه العقلية من الذاتية الحادة، وبما فيها أيضًا من الجماعية

لكن لا تنسوا أني
حاربت القتلة
والخفاش المنزوع
الجفنين
والحيات الصغرى
على قدر الكف
والثعبان الملفوف
على قلب الوادي الأخضر
.. من أجل الجوهرة
الكبرى بين الرمل
في الخط الخلفي الصامد
من أجل الضوء ليل
آن أوان رحيله
من أجل حروف إن
ضمت صارت كلمة
ومياه للقلب العطشان

عبده بدوي

ـــعر عبده بدوي

المذيبة لإرادة الفرد أمام إرادة القبيلة، التي تتمثل في شيخ القبيلة، والعقل العربي أفرخ من هذه المفارقة الحادة بين الذاتية والجماعية ذاتًا متفردة، نرى فيها تسلط الفرد وعملقته، ونرى فيها سيطرة الجماعة وقهرها، ولقد نجد في شعراء قلة من شعراء العربية من يستطيع أن يقف على الحد الفاصل بين حدي المفارقة أي الشاعر الذي يرفع قامته ذاتًا عملاقة تتملك شاعريته جنبات الفضاء الشعري، وتنعكس معطيات هذه الشاعرية على الجماعة انتماء والتزامًا.

١-٢ مهما يكن من الأمر، فإن الوقوف أمام ظاهرة الانتظار في الإبداع العربي بشتى أجناسه الفنية، وفي الإبداع الأدبي بشتى أنواعه - الشعر، فن القصة، الدراما، انطلاقًا من ملمح الانتظار في تكوين العقل العربي له أسبابه الحضارية والتاريخية والجغرافية والنفسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية، وبعد كل هذا، وقبل كل هذا، وفوق كل هذا، فإن له أسبابه الروحية، ولو نحن حاولنا الربط بين فكرة الانتظار، ورؤية أن لكل حضارة عوامل قيامها التي تتمثل في أن لكل حضارة عقيدة وفكرًا، لاتضح لنا تغلغل هذه الفكرة في البناء العقدي والفكري لكل حضارة، بداية من الحضارات الأولى التي عرفها الإنسان؟ وهي الحضارات الزراعية، الحضارة المصرية القديمة، والحضارة البابلية، والآشورية، وانتهاء بالحضارة الثلاثية التي يعيشها إنسان اليوم.

بيد أن منطلق الانتظار يختلف في كل على الرغم من وجوده في صميم الحضارة ولابد من توضيح الفرق بين المنطلق الحضاري لكل من الظاهرة في هذه الحضارة أو تلك، فمنطلق ظاهرة الانتظار في الحضارة الغربية المعاصرة مرتبط بظاهرة الفراغ الروحي في هذه الحضارة التي أكدها «اشفنشر» في «فلسفة الحضارة» و«اشبنجلر» في «تدهور الغرب» و«وكولن ولسون» في «سقوط الحضارة» و«هنتجون» في «نهاية التاريخ» وفوكوياما في «صراع الحضارات» وتتمثل هذه الظاهرة في الفن في دراما «صمويل بيكيت» «في انتظار جودود» في حين أن منطلق الظاهرة في الحضارة الإسلامية مرتبط بامتلاء روحي ووجداني، مع تفاوت نسبي بين مجموعات الأمة الإسلامية، وارتباط كل مجموعة بجغرافيا معينة وأيديولوجيا معينة، وأثر هذه المؤثرات على أنثروبولوجيا الإنسان المسلم عامة والعربي خاصة

١-٣ والوقوف أمام ظاهرة الانتظار في الأدب يحتاج إلى الكثير من الأناة، وإلى الكثير من التشعب داخل الأطر المختلفة، والعلوم المختلفة، وليس هذا موضوعنا، وقد تكفي هذه الإشارة السريعة لنقف أمام شعر الدكتور عبده بدوي.

-٢-

٢-١ إن السمة الواضحة على ظاهرة الانتظار عند «عبده بدوي» تتبدى في هذه الضفيرة الفنية التي تتشكل من العقلية الذاتية ومن العقلية الجماعية في العقل العربي، القبلية العربية بحدتها الذاتية وقهرها الجماعي - منذ قصائده الأولى نرى هذا الملمح، ويقول في قصيدة «أنا» (١٩٤٩):

أنا لا أسير على التراب وإنما نحو السحاب
أنا لست فردًا فاحتسبني أمة بين الخريف
فعلى فؤادي ضجة الشعب المطالب بالرغيف (٢)

الشاعر هنا يبوتق الانتظار في الالتزام، التزامه (فردًا) أمام الجماعة (الشعب).

٢-٢ وفي قصائده الأخيرة أيضًا نرى الملمح نفسه، ولن أستشهد بأكثر من قصيدتين، ذلك لأن الأمر لا يحتمل أكثر من هذا، وهما:

القصيدة الأولى: أمريكا- وهي في مقاطع خمسة، يبدأ كل مقطع بلفظ «يا أمريكا»

يبدأ المقطع الأول بقول الشاعر:

يا أمريكا
ياذات الوجه الفولاذي المستهجن

يغدو مأكولا للفقراء [٣]

٢-٢-٢ أما القصيدة الثانية فهي قصيدة «بقعة دم» والقصيدة مرفوعة للشهيد محمد الدرة، والقصيدة في أجزاء ثلاثة في عنوانات ثلاثة:

١- ما قتلوا طفلاً

بل وطنًا، نوارة عزم

قد أضحى بقعة دم

صولة حق ضائع

٢ - في حي من أحياء النور

والجاز الصاخب في أذني

ينسيني ما يجري بفلسطين

من بقعة دم

صارت تنمو من غير ندم

٣- لن أكمل في هذي الليلة ما أبدعت

لكنك يا هذي الدرة

قد طرت إلى حيث السدرة

ولهذا سميت محمد

فتجلد في قلب الحضرة [٤]

٢-٢-٣ ثمة إشارة في حاجة إلى وقفة - تلك الإشارة التي تقول: إن الشاعر يبوتق الانتظار في الالتزام، التزام الفرد أمام الجماعة، إن انتظار الشاعر هناك، انتظار لأن تتحقق أمنيات الجماعة من خلال التزام الفرد وتحمله لمسؤوليته إزاء هذه الجماعة، الفنان موقف، والشاعر فنان، والموقف محسوب له أو عليه، أيًا كان الموقف، مواجهة، أو هروبًا، أو مشاركة، سواء كانت المشاركة إيجابية أو سلبية، والشاعر عبده بدوي من هؤلاء الشعراء الذين لهم موقف واضح يتمثل في المواجهة مع الآخر المغتصب للحق. وموقف المواجهة يعد أعلى درجات الالتزام.

لقد تبدت هذه المواجهة منذ باكورة شعره الأول، فهو ليس فردًا، بل أمة تطالب بحقها في الحياة، إزاء الآخر المتمثل ساعة كتابة القصيدة المشار إليها، فهو قوى التسلط المتحكمة في قوت الشعب المصري، سواء كانت قوى خارجية متمثلة في المستعمر البريطاني أو قوى داخلية متمثلة في الفساد السياسي وسيطرة الإقطاع على مقدرات الأمور، وأحوال الشعب المقهور سياسيًا وغذائيًا.

☆ السمة الواضحة على ظاهرة الانتظار عند عبده بدوي تتبدى في الضفيرة الفنية التي تتشكل من العقلية الذاتية، ومن العقلية الجماعية في العقل العربي.

والقلب المتقع المصنوع من المعدن

وينتهي المقطع:

والعالم قاس وجريح

من أول حرف في التوراة

حتى الصحف اليومية

وهوائيات التلفزيون

تبدو كصليب دون مسيح!

ويبدأ المقطع الثاني بقول الشاعر:

يا أمريكا

فليرقص قلبك في هذي الأمسية

بحقول الأرز الشاخص، في «فيتنام» المستعصية

لما اندلعت، ثم انفجرت بالقنبلة العنقودية.

وينتهي المقطع:

والعش الشادي في أجفان الأزهار الوطفاء

صهريج بكاء

من غير عزاء

يبدأ المقطع الخامس:

يا أمريكا.

إني من شعب طيب

وينتهي

من ينزل في بحر دماء

يهوي في موج دماء

من يسرق قوت الفقراء

٢-٢-٤ إن الشاعر في حالة ترقب وانتظار لأن تنزاح القمة المتمثلة في قوى القهر والتسلط الخارجي والداخلي في آن جميعًا.

ويطول انتظار الشاعر، نصف قرن من الانتظار المتواصل تتفاوت إبانها شكول الانتظار عنده، لكنها جميعًا في تجذر للأنا والجماعة من منطلق للقبلية العربية.

ومن اللافت للنظر أن قوى القهر المعاصرة تتمثل في قوة إمبريالية صهيونية في أمريكا وإسرائيل. والقصيدتان: «أمريكا» و«بقعة دم» تشيران إلى هذه الرؤية، أمريكا ببرودها وقوتها ولا إنسانيتها، وصلبها للعالم، ونهبها لثروات العالم، وإغراقها للعالم في الدماء، تواجه بشعب النيل الطيب، وشعوب العالم البريئة لتقرر أن من ينزل في بحر دماء سوف يهوي، في موج دماء، وأن الفقراء سوف يأكلون من يسرق قوتهم- الانتظار هنا إذن انتظار لأن يقف الفقراء في العالم، يؤازرون المقهورين في العالم في مواجهة أمريكا التي تفرض الفقر والقهر على العالم الإسلامي عامة والعربي خاصة.

أما هذه الرؤية في بقعة دم فهي انتظار أن يرتفع الواقع العربي بالعقل العربي إلى مستوى الرمز في «محمد الدرة» الذي جاء قتل الصهاينة له قتلاً لوطن، قتلاً لنسيان أو تناسيا من جانب الإنسان العربي لمأساة فلسطين، ليست مأساة شعب، إنها مأساة أمة، مأساة عقل، مأساة حضارة «محمد الدرة» رمز ارتفع إلى سدرة المنتهى، كما ارتفع من سمي باسمه محمد صلى الله عليه وسلم، وهو ما سمي محمدًا إلا لهذا، تقطير وتكثيف للدور المنوط به «الرمز»، فهل يستطيع العقل العربي أن يكون على مستوى الرمز، ويتجلد في قلب الحضرة.

-٣-

إذا كانت السمة البارزة لظاهرة الانتظار عند عبده بدوي قد تبدت في هذه الضفيرة الجمالية التي تشكلت من العقل الفردي والعقل الجماعي في بوتقة العقل العربي، فإن حسه الشعري، وحسه الوطني الديني قد وضعا فكره على أخطبوط الإمبريالية العالمية والصهيونية العالمية. وهذا ما رأيناه واضحًا في قصيدتيه «أمريكا» و«بقعة دم».

إن الحس الديني والحس الوطني يتقطر في جماليات شعرية في شعره كله منذ القصائد الأولى، وحتى القصائد الأخيرة، كما أشرت في الصفحات السابقة

ومن التأسيس على ظاهرة الانتظار فإن لها أسبابًا حضارية، وأسبابًا عرقية لها علاقة بجنس الإنسان وعنصره وهويته، ولقد تتمثل هذه الأسباب الحضارية والعرقية في روافد الشاعر الحضارية.. الحضارة الإسلامية، والحضارة المصرية، في مزيج واحد، أو قل في خلطة واحدة لا يمكن فصل واحدة عن الأخرى، وهذا هو طابع الهوية العربية في مصر منذ مطلع القرن العشرين بعد رحلة بحث عن الشخصية المصرية انتهت إلى هذا المرفأ الآمن. وهذا ما سوف نتلمسه في الصفحات القادمة، أقول نتلمسه، لأنني لا أكتب إلا بحثًا يسيرًا عن شاعر عظيم، حقه أن يكون كتابًا، وفي هذه الظاهرة عنده ..ظاهرة الانتظار.

الأمر إذن يتطلب الاختيار والانتقاء، ولكن ليس عن طريق أخذ عينة عشوائية، بل عن اختيار مقصود فيه دلالة على ما أذهب إليه.

٣-١ - يشير الشاعر عبده بدوي إشارتين واضحتين إلى ما أذهب إليه من روافد الحضارتين الإسلامية والمصرية في هويته الشعرية، إن صح التعبير.

الإشارتان هما:

١- كانت فكرة الموت هي المسيطرة على قرية الشاعر.

٢ - ثم إن أقرباءه كانوا يعيشون في مناخ قرآني [٥].

وترتبط ظاهرة الانتظار بالإشارتين اللتين أشار إليهما الشاعر في معرض الحديث عن مكونات هويته الثقافية.

أما الموت، فهو فلسفة الحضارة المصرية القديمة، إيمان بالموت، وإيمان بالبعث، وأن هناك حسابًا وعقابًا، وأن «ماعت» أي العدالة، سوف تقوم في الآخرة بحساب الحسنات والسيئات في ميزان الإنسان، المصري إذن ينتظر الموت ليجد في آخرته عاقبته، وقد منهجته عبقرية المكان على أن مشاركة انتظار الموت انتظار للحياة. فالمكان مجتمع زراعي، يبذر البذرة في الأرض، ثم ينتظر ماء النيل الذي نظمه وجعل منه مورد الزرع بالقنوات والترع، وضبط مقياس النيل. ثم ينتظر نضج المحصول، ثم ينتظر الحصاد، ثم ينتظر تحقيق أهدافه الحياتية بعد الحصاد، رحلة انتظار مستمر، يغلفها انتظار الموت والبعث، ليس غريبًا إذن أن ترى مسحة الحزن والإشارة الدائمة إلى الموت محتدمة في نفسية الإنسان المصري حتى الآن منذ آلاف السنين. مثلاً نقول «عن شخص نحبه أحبه موت، أو أموت فيه» ما شأن الحب (الحياة) بالموت؟ مثلاً إذا أكثر المصري من الضحك، هناك من يعلق «اللهم اجعله خيرًا» مسحة الحزن في ظاهرة الانتظار.

أما المناخ القرآني الذي سيطر على الشاعر انطلاقًا من بيئته فتراه يتمثل في سيطرة الحضارة الإسلامية على عقل الشاعر، وسيطرة دستورها «القرآن الكريم» لغة وتعبيرًا على لغة الشاعر وتعبيره وحسه الشعري واللغوي في آن جميعًا. والحضارة الإسلامية رافد مهم من روافد الانتظار عنده، فالمسلم ينتظر الثواب في الآخرة، إن لم يأته في الدنيا. والمسلم ينتظر الصلاة بعد الصلاة، وينتظر رمضان بعد رمضان، وينتظر الفرصة والموعد للزكاة والصدقة، وينتظر العمرة إلى العمرة، رحلة انتظار طويلة يحقق بها إيمانه وصفاءه الروحي وامتلاءه الإيماني، وتطبيق شريعة الله.

٣-٢ من شعر الصبا يقول في قصيدة اليائسون:

أخي لن نعيش عبيد السفوح
أخـــي لــن نــهــان عــلــى أرضــنــا
كفى ذلـة أن نـرى هاهنا
يمــزق ســوط الــدجــى حــلــمــنــا
إلى النور يا أيها اليائسون
إلى قــمــة لا تــراهــا المــنــى
ونضرب في كبرياء القصور
بـــآلام شــعــب عــلــى المنحــنــى
وظلوا بحرمانكم سائرين
إلى أن نــنــال بــه حــقــنــا (٦)

ويقول في قصيدة الظلم:

فخذني إلى واديك يا رب إنني
بليت بدهر كل ما فيه مؤلم
أتخلق في الشعر نورًا وبهجة
وتتركني للأرض والأرض تظلم(٧)

ويقول في قصيدة «رجال الأحزاب»:

سقينا أرض مصر من دماء
فهل سعدت وهل ظهر الثمار؟
وليس بمُسْعد شعبٌ قوي
عـلـيـه أذلـــة لـهـم اقـتـدار
لقد صرنا نردد كل يوم
أمــا لـلـيـل في مـصـر نـهـار(٨)

تتمثل في هذه المقتبسات من قصائد «شعر الصبا» المقولة والرؤية التي أذهب إلى أنها مقولة الشاعر تعبيرًا وفنًا، ورؤيته عقيدة وفكرًا. وإشارتي إلى بواكير شعر الشاعر وإلى قصائد الشاعر الأخيرة، إنما أقصد أن أؤكد أن ظاهر الانتظار عند الشاعر برافديها، هي نسيج حياة، وماء روح وقلب وتعبير نفس، وتحقيق هوية.

نقف الآن أمام قصيدة «هجرة الشاعر» التي تتمثل فيها كل الرؤى التي أراها في شعره في إطار ظاهرة الانتظار.

القصيدة في أقسام عشرة في حوالي ثلاثمئة بيت شعري وسبب اختياري للقصيدة أمور:

١- القصيدة تعبير واضح عن هوية الشاعر وعبقريته الشعرية.

٢- ظاهرة الانتظار برافديها من أسس بناء القصيدة.

٣- العمق الإيماني والامتلاء الروحي يشد أركان القصيدة.

٤ - الفروسية الإسلامية العربية من الملامح الواضحة في القصيدة.

٥ - الوعي الكامل بالزمان والمكان والتاريخ والحضارة جاء تعبيرًا في صورة شعرية لها بناؤها الجمالي.

٦- التزام الشاعر وإحساسه بالمسؤولية الملقاة على عاتقه في إطار الفن.

ويمكن القول بأن القصيدة تعبير واضح عن فكر عبده بدوي، وظاهرة الالتزام الإنساني عنده شكل من شكول الالتزام المختلفة، وكذلك الأمر فإن الالتزام يتشكل في ظاهرة الانتظار، ويحدد معالمها عند الشاعر، ولعل عنوان القصيدة «هجرة الشاعر» يجعل المتلقي يتساءل عن أمرين:

١- ما نوعية هذه الهجرة.

٢- لماذا يهاجر الشاعر؟

ولا شك أن السؤال الثاني مرتبط بالشعر والشاعر منذ الشاعر الجاهلي امتدادًا إلى الشاعر العربي المعاصر، ذلك لأن هذا الخزان البشري - الجزيرة العربية، يفرخ بشرًا يهاجرون في مناطقها الشاسعة، وصحرائها الواسعة بحثًا عن الماء والكلأ، أو يهاجرون

☆ قصيدة هجرة الشاعر تعبير واضح عن فكر عبده بدوي، وظاهرة الالتزام الإنساني عنده شكل من شكول الالتزام المختلفة.

منها إلى المناطق المحيطة بحثًا عن الأمن الغذائي والأمان.

أصبحت الهجرة والترحل جزءًا من التكوين النفسي للعقل العربي، بيد أن هذه الهجرة لها حساسيتها، ولها نبضها عند الشاعر خصوصًا لأنه المعبر عن الضمير الجمعي، ولأنه المؤشر الدقيق عن هموم الذات والجماعة التي تتشابك في خدمة واحدة في عقل الإنسان العربي.

أما السؤال الأول، فالهجرة هجرة نفسية منذ «طرفة» الذي يصور هذه الهجرة النفسية تصويرًا دقيقًا، أما الشاعر المعاصر فهجرته نفسية لأنه يحمل هموم واقعه السياسي والاجتماعي، ويحمل هموم أزمة العقل العربي الراهن، وهموم الإنسان العربي التي تكاثفت عليه.

٣-٣ والقصيدة «هجرة الشاعر» ترجمة ذاتية للشاعر عبده بدوي أو لنقل إنها تجربة حياتية وتجربة فنية في آن معًا، فهجرة الشاعر الحياتية كانت إلى بلد عربي، الهجرة كانت إلى العالم العربي، والغربة في العالم العربي ليست غربة حقيقية، فهي لا توصل إلى ما يسمى «الوعي الشقي» بمعنى التنافر بين الذات والموضوع، وأن يكون كل إنسان «مسلوبًا» لمستلب، كما أنها لا توصل إلى ما يسمى الاغتراب النفسي أو الاجتماعي أو الكوني باعتبارها حالات مرضية»[٩].

٣-٤ - ماذا في القصيدة من ظاهرة الانتظار؟

أرى أنه انتظر أن تأتي له الهجرة بما يريده من اعتراف بفضله، أو اعتراف بذاته الشديدة الإحساس

بنفسها، لا عن نرجسية، بل عن تقدير للذات، عن موقف، وخصوصًا أنه قد ترك قومه الذين كان بأسهم بينهم شديدًا، إلى قوم لا يعنيهم إلا ألا يتدخل في ذواتهم وإن كان قومه هناك أيضًا بأسهم بينهم شديد»[10].

هجرة من انتظار فيه جانب من الإيجابية من حيث التكوين العقلي، وذلك استنادًا إلى تنظيم مياه النهر، إلى انتظار فيه جانب من السلبية، وذلك استنادًا إلى انتظار المطر.

-٤-

والقصيدة بعد في عشرة أقسام:

٤-١ - قد قالوا في همس قبل الرحلة

إن الإنسان الضيف

لن يدركه في غربته إلا الحيف[11].

القول الهامس بأنه باع النهر والخضرة والنخل بعطائه، والماضي العريق المتمثل في زهرة اللوتس، واتهام بعدم الوفاء، وعدم الخوف على إرثه مكانًا وحضارة.

٤-٢ - ولقد ذكروا بعض الغرباء

قالوا إن الشعراء الآباء

كل قد عانى من الغربة[12].

وتعدد ذكر شعراء الغربة والشكوى والبكاء: امرؤ القيس، النابغة، عنترة، زهير، الأعشى، طرفة، لبيد، وإن كانوا قد اختلفت أسباب الغربة ونتائجها عند كل منهم.

٤-٣ - لكن الشاعر لا يصغي للأصوات الثكلى من أجداده ويراها وهما

لكن يصغي لنقاء يبدو حلما

وبقلب ممتلئ عزما

يخطو، يمشي مهمومًا جهما

سار على أول طريق الهجرة في عزيمة قلب، يحمل همومه، في جبهته نور يكاد يدمي وبقايا أمل، إنه في حالة إحباط من بلده التي كان يظن أنها تبكي فراقه، ولكن ظنه تحول إلى وهم

٤-٤ - كان وهم الهجرة يتمثل بأنها سوف تكون بلسمًا لجراحه، وأن البعد عن الوطن سوف يكون الدواء للهموم والشفاء من الداء:

يبدو أن الدنيا صارت غير الدنيا

والشاعر في هذي الأيام معافى

مادام سيبعد عن وطنه

مادام سيخرج من زمنه[13]

٤-٥ -كون الشاعر فؤاده ثم تدلى لأعماقه في ذعر الصحراء، حتى يخرج من خوف الحزن المصري، بعد أن كان قرب القمة، وكان مطرقًا في أقصى ذاته، وكلام كالنقش الأثري يطلب منه أن يسقط من الذاكرة ما ظل بها من إشراق وطني، كان لابد من العودة إلى الأصول.

ونعود ببطء للوجه القَبَليّ

وإلى الإيقاع الغاضب من عبس ولؤي

يا هذا ذكّرنا بالمجد العربي

وبقايا من عصر دعوي

قل: إنا حضّرنا العالم[14].

أما المشجع للهجرة، فهو العملات الصعبة في عصر شقي منذ أن أظلمت الدنيا لرفضه التسلق والمدح، وجاء التيه مجلبة للبكاء.

٤-٦ - عودة الإنسان وانتماؤه، الجذور لابد من البحث والتنقيب عنها. لأنها الأصل والمصير، وحين يكون الإنسان حريصًا على هواه وعلى جذوره، يكون هذا طريقًا صحيحًا إلى السمو.

وبدأنا رحلتنا من جذور الأشياء

صرنا كفا في كف، قلبًا في قلب-إسراء في معراج

قد طوفنا في قلب الكون، وفي سر الإسراء

حتى كانت تلك الدرة[15].

٤-٧ - تتنامى درامية القصيدة، وخاصة أن مركز

☆ **يتقطر الحس الديني والحس الوطني في جماليات شعر عبده بدوي من القصائد الأولى حتى القصائد الأخيرة.**

الصراع، أو قل ذروة الصراع الدرامي، إن أخذنا من الدراما بعض أدواتها، كانت في بداية القصيدة، وكانت هجرة الشاعر الحياتية التي جاءت فنًا في التعبير الشعري، هي بداية نزول الخط البياني الشعري (الدرامي) ونلاحظ أن مقاطع القصيدة يترتب بناؤها الفني على منطق درامي بحيث يسلم كل مقطع إلى المقطع التالي له فنيًا ودراميًا، بيد أن البناء جاء هرميًا، ولكن بشكل مقلوب، فقمة الهرم أسفل، أي أن ذروة الصراع بدأت من أول الأمر، كما أشرت آنفًا. أجبر نفسيًا وحياتيًا على الهجرة، واتهم بعدم الانتماء، عاش الشاعر ماضيه وإرثه الثقافي، وتراثه الشعري، شعراء الجاهلية خاصة وقف أمامهم، ولم يتعدهم إلى العصور التالية. لسببين - فيما أرى - الأول: أن بكائية الشعر العربي كانت في الشعر الجاهلي، الثاني أن الشاعر مرتبط ارتباطًا وثيقًا بالجذور، سار على طريق الهجرة حمل همومه على كاهله، ظنًا منه أن الهجرة بلسم الجراح ودواء الهموم وشفاء النفس، بيد أنه اكتشف في ليل الغربة أنه لا مفر من الهموم إلا بالعودة إلى الجذور والانتماء، يضمن الشاعر قصيدته نصوصًا «لأبي نواس» ولأبي العلاء المعري، ولأمية بن عبدالعزيز، تصب في تيه الغربة، وترى الانتماء والعودة إلى الجذور ملاذًا.

٤-٨ الإحساس بحتمية الارتباط بالجذور، وإلا فإن المقابل هو الموت، على الرغم من أن الجذور كانت مصدر الفرح والبكاء، مما عمق في الذات القلق والتوتر، وجعل الحزن يتمطى في العمر، وأسقط الذات في تيه بين الأمل واليأس لا تعرف الماضي من الحاضر، ولا تعرف البيت من القبر، وضاع كل شيء.

لم أعرف إلا أني قد ضيعت المرفأ والبيت
لم أعرف إلا أني في غمرة ما ألقاه بكيت
وبأني في حزن أتهيأ وأخوض- للموت [١٦].

٤-٩ - تتكرر - تيمة البكاء في القصيدة، امتدادًا لبكاء الشاعر الجاهلي ارتباطًا بالرحلة والرحيل، والبكاء على الأطلال. إنه ليس بكاء على المرأة الراحلة إنما هو بكاء على المرأة الأمن، السكن، الأرض، الوطن، لذا كانت «هجرة الشاعر» قصيدة شاعر عربي جاهلي معاصر تحمل عبق التراث، وهموم الحاضر يجمعها جميعًا تيار الغربة النفسية والاغتراب، في الزمان والمكان، وكلها من مكونات العقل العربي الراهن.

-٥-

إذا كانت «هجرة الشاعر» نموذجًا لظاهرة الانتظار عند الشاعر فللشاعر عبده بدوي ثلاثة عشر، ديوانًا من الشعر، وقصيد سيمفوني «محمد»، وثلاث مسرحيات شعرية من التراث «ثم يخضر الشجر» وكلها تتبدى فيها ظاهرة الانتظار، بشكوله المختلفة، وأنواعه المتعددة، والرصد لشعر الشاعر جعلني أرى أكثر من خمسين قصيدة غير مسرحية «المنتظر» فيها جميعًا تتشكل الظاهرة بشكل واضح كل الوضوح، ولا نغفل في هذا المقام البعد الإسلامي العميق، في تكوين الشاعر، وفي نسيج شعره، بشكل يجعل هذا البعد جزءًا من التكوين الجمالي لشعره.

وبعدُ: فإن ظاهرة الانتظار عند عبده بدوي في حاجة إلى سفر يقف أمام شكول هذه الظاهرة ودلالاتها. وتنوع هذه الشكول وارتباطها بالالتزام والانتماء، وما كانت هذه الوقفة إلا وقفة يسيرة، لم يأخذ الشاعر فيها حقه من الدراسة النقدية، إنما هي إشارة فحسب.■

الهوامش:

١- عبده بدوي: الأعمال الكاملة م٢، المنتظر ص ٥٤٢.
٢- المصدر السابق -م٣ ص٢٦٢.
٣- نفسه -م٣-ص٢٣٥-٢٤٧.
٤- نفسه -م٣-ص٢٤٨-٢٥٠.
٥- نفسه -م٣- رحلة مع الشعر - ص٢٥٩، ص٢٦٠.
٦- نفسه -م٣-ص ٢٥٤.
٧- نفسه -م٣-ص ٢٥٨.
٨- نفسه -م٣-ص٢٥٨.
٩- نفسه -م٢- استفتاح «هجرة الشاعر» ص٢٨٤-٢٨٥.
١٠- نفسه -ص٢٨٥.
١١- نفسه -ص٣٥٤.
١٢- نفسه -ص٣٥٦.
١٣- نفسه -ص ٣٦١.
١٤- نفسه -ص٣٦٣.
١٥- نفسه -ص ٣٧١.
١٦ -نفسه -ص٣٧٢